مابعد الحداثة أم حداثة فائقة؟

Postmodernity or hypermodernity?

ياسين كرام
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2 (الجزائر) kerramyacine@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/05/19 تاريخ القبول: 2022/02/03 تاريخ النشر: 2022/07/31

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تحليل طبيعة العلاقة التي تجمع بين الحداثة وما بعد الحداثة. حيث كانت الفكرة الشائعة تعتبر أن مابعد الحداثة هي قطيعة مع الحداثة لأن القيم العالمية والأفكار المؤسسة لهذه الأخيرة تم التخلي عنها في مرحلة مابعد الحداثة. وهو ما تعبر عنه دلاليا الكلمة المضافة "مابعد".

ولكن بعض الدراسات، التي تكثفت بشكل كبير مع بدايات القرن الواحد والعشرون، أعادت مسائلة مابعد الحداثة وعلاقة هذه المرحلة مع الحداثة: أولا من حيث طبيعة العلاقة وثانيا من حيث المصطلح، حيث لم تعد مابعد الحداثة تشير إلى معنى القطيعة وإنما تحيل إلى معنى الاستمرارية والتواصل، هذا لأن المبادئ التي قامت عليها الحداثة أصبحت أكثر تجذرا وانتشارا. ولما كان الأمر كذلك فإن مصطلح مابعد الحداثة لم يعد صالحا لوصف المرحلة المعاصرة بشكل دقيق لهذا تم إبداع مصطلح جديد يتمثل في الحداثة الفائقة.

كلمات مفتاحية: حداثة؛ ما بعد الحداثة؛ حداثة فائقة؛ قطيعة؛ استمرارية.

***Abstract*:**

This article aims to analyze the nature of the relationship between modernity and postmodernism. Where the common idea at the beginning was that postmodernism is a break with modernity because the global ideas and founding ideas of the latter were abandoned in the postmodern stage.

But some studies, have re-questioned postmodernism and the relationship of this stage with modernity: first in terms of the nature of the relationship second in terms of the term where postmodernism no longer refers to the meaning of rupture but rather refers us to the meaning of continuity, this because The principles on which modernity was based are. As this was the case, the term postmodernism is no longer valid for accurately describing the contemporary period, and this is why a new term has been devised for hypermodernity.

Keywords: *modernity; postmodernity; hypermodernity; rupture; continuity.*

1. مقدمة:

تعددت القراءات المقدمة للأزمنة المعاصرة، سواء تعلق الأمر بوصفها أو تحديد مصطلح لها. كثيرا ما تم تداول مصطلح مابعد الحداثة كتعبير عن نهاية الحداثة والإعلان عن دخول مرحلة جديدة لها خصائصها التي تميزها أطلق عليها تسمية: مابعد الحداثة Post-modernité مصطلح شاع وانتشر بفضل أعمال الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليوتار منذ سنوات السبعينات حين كتب مؤلفه الشهير: "الوضع مابعد الحداثي"1979 واستمر هذا المصطلح سائدا ومهيمنا على وصف التحولات الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي انبثقت بالتقريب في النصف الثاني من القرن العشرين.

لكن، وبعد مرحلة التسعينات بدأت مصطلحات أخرى تزاحمه بشكل محتشم في البداية حيث ظهرت مصطلحات جديدة مثل: الحداثة القصوى ultra modernité الحداثة الفوقية Sur-modernité، الحداثة المتقدمة Modernité avancée والحداثة الجديدة Néo-modernité والحداثة الثانية، Deuxième modernité الحداثة السائلة Modernité liquide، الحداثة الفائقة Hypermodernité كتعبير عن عدم قبلوهم لمصطلح مابعد الحداثة من جهة، ومن جهة أخرى نلتمس منهم رغبة في محاولة الإبداع المفاهيمي. واللافت للنظر أن كل هؤلاء المفكرين الذي أبدعوا مصطلحات جديدة هم سوسيولوجي التكوين وإن كانوا ينتمون إلى ميدان الفلسفة فإننا نجدهم ذوو توجهات سوسيولوجية بارزة.

في بداية الألفية الثالثة ظهر مصطلح جديد هو: الحداثة الفائقة Hypermodernité نحته الفيلسوف الفرنسي جيل ليبوفتسكي Gilles Lipovetsky مع مجموعة من المفكرين الآخرين. ويبدو أن المصطلح الأكثر انتشار والأكثر منافسة لمصطلح مابعد الحداثة من بين المصطلحات المذكورة هو: الحداثة الفائقة وخير دليل على انتشاره هو تبنيه من طرف مفكرين آخرين في مؤلفاتهم.

في هذا المقال سأحاول البحث عن الأسباب التي تبرّر هذا الإبداع المفاهيمي في إعادة تسمية المرحلة المعاصرة وسأقتصر في ذلك فقط على المصطلح الأكثر انتشارا وهو: الحداثة الفائقة. كما سأركز فقط على موقف الفيلسوف جيل ليبوفتسكي وذلك لسببين أولهما لأن مصطلح الحداثة الفائقة مرتبط به أكثر من المفكرين الآخرين الذين تبنوه. وثانيا: لأنه في بداية مساره الفكري كان يوظف مصطلح مابعد الحداثة ثم تخلى عنه وتبنى مصطلح الحداثة الفائقة.

في مسألة تغيير المصطلح الواصف للمرحلة المعاصرة من مابعد الحداثة إلى الحداثة الفائقة، تساءل شارل سيبستيان Sébastien Charles في مقاله "من مابعد الحداثة إلى الحداثة الفائقة" وهو يشير إلى

الكتاب الذي ألفه بالاشتراك مع جيل ليبوفتسكي: "أزمنة الحداثة الفائقة les temps hypermodernes 2004" حول دواعي مسائلة مصطلح مابعد الحداثة والتفكير في مصطلح آخر هو الحداثة الفائقة؟ فما أن تماهى جمهور المثقفين والقراء مع مصطلح مابعد الحداثة حتى تعالت أصوات تدعوا إلى مسائلته والتفكير في مصطلح آخر هو الحداثة الفائقة؟ لماذا هذا التساؤل المفاجئ في ضرورة إعادة طرح سؤال ما بعد الحداثة والتفكير في ماهيتها وتغيير السوفيكس (الكلمة المضافة)؟ (Charles S. , automne 2005-Hiver 2006)هذه الأسئلة التي طرحها تدفعنا إلى التفكير في هذا الإبداع المفاهيمي المتعلق بوصف الأزمنة المعاصرة: هل هذا الابداع هو تغيير في المنظومة الفكرية والأدوات المنهجية ومنه تغيير في مستوى النتائج المتوصل إليها بخصوص وصف الأزمنة المعاصرة وعلاقتها مع الأزمنة الحديثة؟ أم هو مجرد لعب بالكلمات؟ أو بتعبير آخر هل هذا التغيير مجرد تحول طفيف في المستوى السطحي (اللغة) أم هو تحول عميق يمس طبقات وعينا لهذه المرحلة وللعلاقة التي تجمعها مع الحداثة؟ للإجابة عن هذه الإشكالية نستعين في مسار بحثنا بالفرضية التالية: الحداثة الفائقة تحيل إلى فكرة الاستمرارية مع الحداثة أما مابعد الحداثة تحيلنا إلى فكرة القطيعة معها.

2. الحداثة الفائقة: حفر في تاريخ ودلالة المصطلح وأساب انتشاره

أول من وظّف مصطلح "الحداثة الفائقة" فرقة بحثية تحت إشراف Max Pages حين أنجزت دراسة جماعية نُشرت عام 1979 تحت عنوان: l'emprise de l'organisation. هذا المصطلح تم إعادة طرحه واستعماله في سبتمبر 2003 ضمن أعمال ملتقى مخصص حول تجليات فرد المجتمعات المعاصرة. وتم نشر أعمال هذا الملتقى في كتاب جماعي حمل عنوان: الفرد الحداثي الفائق L'individu hypermoderne وذلك في ماي 2004 تحت إشراف نيكول أوبيرت Nicole Aubert. بعد ستة سنوات أي في سنة 2010 تم نشر كتاب آخر بعنوان: المجتمع الحداثي الفائق La société hypermoderneالذي كان بمثابة استمرارية وتكملة للكتاب الأول: الفرد الحداثي الفائق.

في نفس العام الذي نشر فيه مؤلف: الفرد الحداثي، الفائق قام ليبوفتسكي بالاشتراك مع زميله شارل سيبستيان بنشر كتابهما: أزمنة الحداثة الفائقة les temps hypermodernes . في هذا الكتاب عبرا عن قدوم أزمنة الحداثة الفائقة حيث أعلن فيه ليبوفتسكي صراحة عن تخليه عن مصطلح مابعد الحداثة من أجل مصطلح الحداثة الفائقة. علما أن ليبوفتسكي وظف أول مرة مصطلح الحداثة الفائقة Hypermodernité في كتابه المرأة الثالثةla troisième femme الذي نشره في 1997، وقبل ذلك

بمصطلح الحداثة الفنية الفائقة Hypemodernisme في كتابه مملكة الزائل (الموضة) l'empire de l'éphémère الذي نشره عام 1987.

في سنة 2007 نشر شارل سيبستيان مؤلفا صغيرا عنونه: الحداثي الفائق: مشروح للأطفال L'hypermoderne: expliqué aux enfants. هذا العنوان يذكرنا بكتاب ليوتار الذي كتب عام 1986: مابعد الحداثي: مشروحة للأطفال le postmoderne : expliqué aux enfants هذه المحاكاة في العناوين تحمل دلالة كبيرة ورغبة ملحة في تجاوز مصطلح مابعد الحداثة وإحلال مكانها الحداثة الفائقة وكأنهم بذلك يريدون القول أن زمن مابعد الحداثة قد انتهى وها نحن في زمن الحداثة الفائقة. في عام 2005 فرانسوا آشر Francois Ascher ألف كتابا عنونه: ناهم الحداثي الفائق: Le mangeur hypermoderne. يتناول فيه أنماط الاستهلاك للفرد المعاصر. في سنة 2012 نشرت مجلة connections عددها السابع والتسعون وعنونته ب: الحداثة الفائقة تحت المسائلة L'hypermodernité en question. في سنة 2017 أصدر مجموعة من الباحثين العالميين تحت إشراف فرانكا ماديوني Franca Madioni مؤلفا بعنوان: أشكال الفراغ: البسيكوباطولوجيا (علم النفس المرضي) والحداثة الفائقة Figures du vide : Psychopathologie et hypermodernité. آلان تورين بدوره ألف مؤخرا كتابا نشره سنة 2018 عنوانه: دفاع عن الحداثة. Défense de la modernité حيث خصص الجزء الثاني منه للحديث عن مجتمع الحداثة الفائقة، وفيه يعتبر أن فرضية الحداثة الفائقة أكثر مصداقية في الواقع من فرضية مابعد الحداثة.

عموما يمكن القول أن بعد 2004 عرف مصطلح "الحداثة الفائقة" انتشارا كبيرا وواسعا في الأوساط الثقافية والفكرية حيث نجده يتصدر العديد من عناوين الكتب والمقالات واتساع دائرته بفعل مما ساهم بشكل كبير في إشاعة وانتشار هذا المصطلح والتعريف به.

1.2 أسباب انتشار مصطلح الحداثة الفائقة:

يمكن إرجاع هذا الانتشار وهذه الشهرة إلى أسباب سطحية وأخرى عميقة جعلت من هذا المصطلح يحجز مكانه في الساحة الفكرية المعاصرة. يمكن اعتبار سهولة نطق الكلمة المضافة "Hyper هيبار من جهة وكذا انتشارها في ميادين معرفية أخرى مثل: التكنولوجيا والأدب والسوسيولوجيا والاقتصاد: hyertexte hypermarché، hypermédias أمرا ساهم بشكل كبير على انتشاره.

بالإضافة ذلك نجد أن العديد من الكتاب على غرار ليبوفتسكي ونيكول أوبيرت وفرانسوا آشر وغيرهم قاموا بإدراج هذا المصطلح في الواجهة كعناوين لكتبهم. وهي كطريقة للرد على كتاب فرنسوا ليوتار

الذي كتب من قبل كتيبا صغيرا "الوضع مابعد الحداثي" وكما هو واضح اختار أن يدرج مصطلح مابعد الحداثة في واجه الكتاب. ما نريد قوله أن الأمر الذي ساعد على إشاعة مصطلح "الحداثة الفائقة" وانتشاره هو اختياره من قبل العديد من الكتاب كعنوان لكتاباتهم ومقالاتهم. ويبدو أنه لا توجد أفضل طريقة لنشر مصطلح أو مفهوم ما من وضعه في الواجهة واختياره كعنوان. هذا فيما يتعلق بالأسباب السطيحة التي ساهمت في انتشار مصطلح الحداثة الفائقة.

أما الأسباب العميقة وهي المهمة، فإننا نجد بعض المفكرين والفلاسفة الذين تبنوا مصطلح الحداثة الفائقة لم يكتفوا بذبلك، أي بتبنيه، وإنما أيضا بالدفاع عنه. فجيل ليبوفتسكي مثلا لم يكتف فقط بتقديم مصطلح الحداثة الفائقة كبديل لمصطلح مابعد الحداثة بل حاول أن يدافع عليه من خلال أفكار وتحليلات عميقة بدأت منذ كتابه الأول "عصر الفراغ" 1983 أو بالأحرى في كل كتبه التي أصدرها ما قبل الألفية الجديدة.

حيث كان في هذه المرحلة، تحت تأثير السياق الفكري العام، يوظف مصطلح مابعد الحداثة إلا أن مضمونه كان محملا بمعاني ودلالات مصطلح الحداثة الفائقة، بمعنى حتى وإن كان ليبوفتسكي قد وظف في كتاباته الأولى مصطلح مابعد الحداثة إلا أنه كان يشير إلى المعاني التي تحيلنا إليها الحداثة الفائقة، أي لم يكن يوظف مابعد الحداثة بمعنى القطيعة مع الحداثة وإنما بمعنى الاستمرارية والتواصل بين المرحلتين. ففكرة الاستمرارية كانت حاضرة منذ كتابه الأول "عصر الفراغ" وما كان غائبا فقط هو المصطلح الذي يعبر بكل دقة عن فكرة الاستمرارية لهذا بعد مدة زمنية اكتشف ليبوفتسكي أن هناك خللا في التعبير (مابعد الحداثة) الذي لا يتوافق مع التشخيص(الاستمرارية). لهذا تخلى عن مابعد الحداثة ليتبنى الحداثة الفائقة. هذا الابتكار اللغوي خلق نوعا من الديناميكية في الأفكار والمواقف.

الحداثة الفائقة كما صورها ليبوفتسكي، من حيث هي تشير وتحيل إلى فكرة الاستمرارية مع الحداثة، متفائلة عكس مابعد الحداثة، من حيث هي تحيل إلى القطيعة، تكشف عن قراءة متشائمة لوضع الأزمنة المعاصرة. فإذا كان اكتشاف الحداثة هو اكتشاف لحرية الإنسان وسر سعادته وتقدمه فإن القول أننا مازلنا حداثيين وبل حداثيين فائقين فإن هذا يعني أن الأمل مازال موجودا وأن الحلم بالكمال والسعادة مازال قائما، عكس مابعد الحداثة التي أعلنت عن موت الإنسان وتشيئه وانهيار آماله واندثار أحلامه وهذه الأحكام بطبيعة الحال تقدم صورة متشائمة عن وضع المجتمعات المعاصرة. ومنه يكون تبنى مصطلح الحداثة الفائقة هو الأنسب لكل المفكرين المتفائلين بخصوص ما يتعلق بوضع المجتمعات المعاصرة، لهذا نجد أن مابعد الحداثة منتشر أكثر في الكتابات المتشائمة والحداثة الفائقة في الكتابات المتفائلة.

يبدو أن سبب إبداع مصطلح جديد لمرحلة مابعد الحداثة هو غموض المصطلح نفسه وعدم دقته فهو لا يحيل إلى شيء واضح ودقيق وهذا بشهادة العديد من الدارسين أنفسهم. لهذا تم إبداع مصطلح الحداثة الفائقة الذي يعبر عن التميز والوضوح ويعبر عن معنى دقيق وواضح عكس مابعد الحداثة التي ألفت حولها العديد من الكتب والمقالات تشرح وتُعرف وتؤرخ لها ورغم كل هذا مازال هذا المصطلح غامضا ونجد صعوبة في القبض على دلالاته.

2.2 دلالات المابعد Post والفائق Hyper :

إن دلالة "مابعد" تختلف عن دلالة "الفائق" الأول يحيل إلى التجاوز إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى، فهو بذلك يحيل إلى القطيعة، أما الفائق فهو يحيل إلى التجذر والتضخم وازدياد الحدة وبذلك فهو يعبر عن الاستمرارية، والمواصلة في نفس الطريق ولكن بشكل أكثر حدة وأكثر سرعة.

وعندما نتأمل في كل من الكلمتين المضافيتن:" مابعد Post"و"الفائق"Hyper نجد أن المابعد منتشرة كثيرا في الحقل الفلسفي وعند المشتغلين بالفلسفة أما الفائق يتم توظيفه أكثر عند السوسيولوجيين أو في الدراسات الاجتماعية. وهنا نطرح تساؤلا لماذا هذا التمييز وإلى أي مدى يعد صحيحا؟

يمكن القول أن الفلاسفة يركزون على مشروع الحداثة من جهة أنها أعلنت ميلاد العقلانية وفكرة التقدم العقلي في التاريخ وأن المستقبل يحمل أملا ووعدا بالكمال والاكتمال. هذه الخصائص التي تميزت بها الحداثة نجد أنها تهاوت في مرحلة مابعد الحداثة فالعقلانية تراجعت لصالح اللاعقلانية وهذا ما نجد مع فرويد مثلا، وأن المستقبل المتطور والفاضل الذي كانت تبشر به فلسفة التاريخ الحديثة تحول إلى حرب عالمية أولى وثانية، وأن المطلقية النيوتينية حل محلها النسبية الأنشتينية. مدرسة فرانكفورت بدروها شنت هجوما شرسا على العقلانية التي تسبب في ألينت الحياة وشيء الإنسان، وإلى هذا التيار تنظم كتابات فوكو وهيدجر الذي أعلنوا انشطار الذات وموت الإنسان. ليوتار الذي لخص هذا الوضع بأكمله في قوله بنهاية السرديات الكبرى. إن:« هذا الكم الهائل من الأفكار والانتقادات والتحفظات إزاء العديد من مظاهر الحداثة: إفلاس الاديولوجيات الكبرى، تلاشي الثقة بمثل التنوير وكذا الأساطير المحركة للثورة الفرنسية، تلاشي مصداقية القوى المؤسسة للفضاء السياسي، تراجع مستوى الرفاهية في الحياة(...)هذه كلها تحمل اسم مابعد الحداثة » (Claude, 2012, p. 17) لهذا قال فلاسفة مابعد الحداثة بأن مشروع الحداثة قد انتهى وحل محله نموذج جديد من التفكير لم يعد للعقل نفس المكانة التي تفاءل بها المشروع الحداثي ووعد بها. وعليه فإن مابعد الحداثة تحيلنا إلى نقد الأسس الفكرية التي قامت عليها الحداثة من خلال النظر إلى النتائج التي

آلت إليها. ولما كان الفكر من اختصاص الفلسفة فإن الفلاسفة وظفوا مصطلح "مابعد" الذي يعني أن هناك قطيعة فكرية (المقولات الفكرية) بين مابعد الحداثة و الحداثة.

وبالمقابل نجد أن الذين يميلون إلى الدراسات السوسيولوجية يحبذون استخدام "الفائق" الذي حسبهم يشير إلى التواصل والاستمرارية. فمن حيث النمط الاجتماعي عرف الاجتماع الإنساني انعطافة هامة وحاسمة في مرحلة الحداثة تتمثل في الانتقال من التنظيم الاجتماعي التقليدي إلى التنظيم الاجتماعي الحديث. هذه المجتمعات الحديثة تقوم على مقومات رئيسية هي: الديمقراطية والفردانية والليبرالية واقتصاد السوق. هذا النمط الاجتماعي الذي يسير وفق هذه المقومات والذي ظهر في مرحلة الحداثة نجد أنه مازالت يشتغل وفق المقومات ذاتها في مرحلة مابعد الحداثة وبما أن مقومات المجتمعات الحديثة مازالت حاضرة في المرحلة المعاصرة وبل زادت حدتها فنحن إذن لسنا ما بعد حداثيين، أي أن النمط الاجتماعي المعاصر ليس قطيعة مع النمط الاجتماعي الحديث وإنما امتداد واستمرارية له. فالمجتمعات المعاصرة مازالت تحتكم إلى الدمقراطية ومازالت تسير نحو فردانية ولبرالية راديكالية ولما كان الأمر كذلك فإنه من وجهة نظر سوسيولوجية نجد أن المجتمعات المعاصرة ليست "مابعد" حداثية وإنما حداثية "فائقة". وهو ما عبر عنه نيكول اوبيرت. بقوله أن :« مابعد الحداثة تقوم على مبدأ القطيعة مع الأفكار الكبرى التي أعلنتها الحداثة (...) أما الحداثة الفائقة فهي لا تقوم على القطيعة مع مبادئ الحداثة وإنما على تكريس و تجذر [مبادئ]الحداثة ,Nicole, 2006 /7) » (p. 606ومن هذا التكريس وهذه الراديكالية لمبادئ الحداثة يستمد مصطلح الحداثة الفائقة مشروعيته.

ليبوفتسكي نفسه حتى وإن تنبى في بدايات كتاباته مصطلح مابعد الحداثة إلا أنه اعترض آنذاك على فهم مابعد الحداثة كقطيعة مع الحداثة واعتبر ذلك خطأ في تشخيص العلاقة التي تربط مابعد الحداثة بالحداثة. وقد عبر عن ذلك منذ كتابه الأول "عصر الفراغ" حيث اعتبر أن مابعد الحداثة:« تدعونا بالعكس إلى العودة الحذرة لجذورنا، إلى وضع عصرنا محل مساءلة تاريخية، وإلى تأويل يلامس عمق العصر الذي خرجنا منه جزئيا لكنه، في عدة جوانب، مازال يواصل انجازاته. لهذا لا ينبغي أن نكترث إلى الأصوات المتهافتة التي تزعم القطيعة الكلي »(Lipovetsky, 1983, p. 113) مع الحداثة. وفي موضع آخر يقول:« بعيدا أن يكون في قطيعة مع الحداثة، عصر مابعد الحداثة يُعَرف كاستمرارية وتعميم لأحد نزعاته المؤسسة المتمثلة في: المسار التحرري للفرد وبالمقابل التقليص المستمر للمسار النظامي. لهذا لا يمكن أن نضم صوتنا إلى الاطروحات المصاغة حديثا والتي تحاول جاهدة، باسم اللا تحدد والاصطناع أو باسم فقدان شرعية السرديات الكبرى، التفكير في الحاضر على أساس أنه مرحلة جديدة من التاريخ»(Lipovetsky, 1983, p. 163) لهذا يعتبر ليبوفتسكي أن عصر ما بعد الحداثة حتى وان عرف تهاوي السرديات الكبرى إلا ان ذلك لا، في نظره،

لا ينبغي فهمه على أنه في قطيعة مع الحداثة بل في العمق يواصل مشروعها الهادف إلى تحرير الأفراد من سلطة التقليد.

لكن كيف يمكن تفسير توظيف ليبوفتسكي لمصطلح مابعد الحداثة على الرغم من أنه كان ضد فكرة القطيعة مع الحداثة؟ يمكن تفسير السبب الذي جعل ليبوفتسكي يوظف مصطلح مابعد الحداثة على الرغم من أنه في تلك المرحلة كان ضد أطروحات المابعد حداثيين الذي يروجون لفكرة القطيعة مع الحداثة هو أنه آنذاك كان متأثرا بالفلاسفة الكبار: ليوتار، ألتوسير، ودولوز وغيرهم الذين تبنوا هذا المصطلح هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان متفق مع تحليلات ليوتار التي تعتبر مابعد الحداثة كمرحلة تراجعت فيها الاديولوجيات الكبرى فهو من هذا الجانب يقبل توظيف مصطلح مابعد الحداثة لأنها تتماشى مع أفكاره التي تؤكد على قدوم مرحلة جديدة تميز بـ: مابعد الثورة، مابعد الانضباطية وما بعد الشمولية، أي مابعد السرديات الكبرى إلى مرحلة جديدة لم تعد السرديات الكبرى هي التي توجه العالم أو يتم تفسيره من خلالها. إلى هذين السببين، في اعتقادنا، يمكن إرجاع توظيف ليبوفتسكي لمصطلح مابعد الحداثة.

لكن، من جهة أخرى، كان ليبوفتسكي مدركا أن هذه المرحلة الجديدة، أي مابعد الحداثة، حتى وإن كانت في قطيعة مع الاديولوجيات الكبرى للحداثة إلا أنها تشكل استمرارية لمنطق اشتغال الحداثة نفسها، لأن الدعائم التي قامت عليها الحداثة: الفردانية والعلم التقني وحقوق الإنسان مازالت حاضرة وبل أصبحت أكثر تجذرا. حيث يقول في كتابه أزمنة الحداثة الفائقة:« مابعد حداثي كان في ذهني يعني القطيعة والاستمرارية؛ مرحلة تتميز بمابعد الثورة، مابعد الانضباطية ومابعد الشمولية لكنها أيضا تعد امتداد للمنطق العلماني الديمقراطي الفرداني »(Charles G. L., 2004, pp. 109-110) هذا الامتداد للمنطق العلماني والديمقراطي الفرداني للحداثة هو الذي جعله يتصور أن الأزمنة المعاصرة في نمط اشتغالها هي امتداد للأزمنة الحديثة.

يعتبر ليبوفتسكي الحداثة الفائقة على أنها مرحلة تجذّر الأنظمة الثلاثة التي قام عليها العصر الحديث: العلم التقني، السوق، والفرد وتشكله السياسي المتمثل في الديمقراطية. هذه الأنظمة الثلاثة المتمثلة في: النزعة العلمية التقنية، واقتصاد السوق، والفردانية والديمقراطية هي الركائز الأساسية التي قامت عليها الحداثة؛ ما نجده في المرحلة المعاصرة أن هذه الركائز تعززت مكانتها وتجذر منطق اشتغالها: كل المثبطات التي كانت تعيق تطورها تم التخلص منها في مرحلة الحداثة الفائقة. بهذا التأويل تعد هذه المرحلة استمرارية لمبادئ الحداثة وتكريس لها.

يؤكد شارل سيبستيان نفس ما قاله ليبوفتسكي بقوله:« مابعد حداثة ليس شيئا أخر أو مغاير للحداثة وإنما هي، ببساطة، حداثة قد تخلصت من الأنظمة المثبطة للمبادئ القاعدية الكبرى المؤسسة لها (الفردانية، العلم التقني، السوق، الديمقراطية) في أن تتمظهر بجلاء. وإذا تم إبراز مابعد الحداثة بهذا الشكل فلا ينبغي أن نفهمها كقطيعة بل كقوس جديد »(Carles, 2007, pp. 18-19)

يعترف شارل سيبستيان أن مبدأي اقتصاد السوق والعلم التقني تم نقدهما بشكل كبير، لكن يؤكد أنه لا يوجد نظام اقتصادي بديل بإمكانه أن يعوض السوق ولا يوجد من يدين التطور العلمي والتكنولوجي ويتمنى العودة إلى حياة ما قبل التكنولوجيا. أما بخصوص قيم الفردانية والديمقراطية فيعتبر أنه لا أحد يدين حقوق الإنسان أو يتنازل عنها بل ازدادت المطالبة بها. في العمق كما يقول ليبوفتسكي نحن لا نسعى سوى إلى "تحديث الحداثة" وعقلنتها أكثر وتعميق مبادئها وليس الذهاب إلى مرحلة جديدة بحيث تكون قطيعة كلية مع الأولى (Charles G. L., 2004, p. 78)

الحداثة في نظر ليبوفتسكي قد فجرت طاقاتها وبلغت طورا رهيبا من التطور والتعقيد ودفعت بمبادئها إلى أبعد الحدود، فهي لم تعد حداثة فقط بل حداثة فائقة، ولم تعد حداثة بدائية بل حداثة فائقة حيث أحدث تغييرات كبيرة في أنماط العيش والتواصل والثقافة والتربية والاستهلاك وغيرت بشكل رهيب سلوكاتنا وعلاقاتنا الاجتماعية. إذا كانت الحداثة: هي الفردانية واللبرالية والاستهلاك واقتصاد السوق وعصر القوة...فإن الحداثة الفائقة هي: الفردانية الفائقة والليبرالية الفائقة والاستهلاك الفائق والسوق الفائق، والقوة الفائقة...

3. الفردانية، "النموذج المثالي" لفهم الحداثة والحداثة الفائقة

الفردانية، الخيط الناظم لكل الفلاسفة والمفكرين الذي يتبنون فرضية الحداثة الفائقة، هي المقولة الأساسية التي يركزون عليها في دراستهم للتحولات التي تشهدها مجتمعات الحداثة الفائقة، ومن خلالها يفهمون ذلك الانتقال الذي حدث من الحداثة إلى الحداثة الفائقة. وبلغة ماكس فيبر فإن الفردانية هي "النموذج المثالي" لفهم هذه التحولات الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تشهدها مرحلة الحداثة الفائقة، باختصار إن أحسن نموذج لفهم تحولات هذه المرحلة هو ذلك الذي يأخذ مقولة الفردانية بعين الاعتبار. توظيف مقولة الفردانية لفهم الحداثة وتطوراتها هو ما يعبر عنه ب"التأويل الفرداني للحداثة" أي التأويل الذي يعبر أن تاريخ الحداثة هو تاريخ الفردانية. (Renaut, 1995, pp. 13-17)

تاريخيا، ظهرت الفردانية مع القطيعة التي أحدثتها المجتمعات الحديثة مع المجتمعات التقليدية، حين ظهرت مع هذه القطيعة نمط اجتماعي يقوم على مؤسسات تكفل للأفراد حريتهم وممتلكاتهم وتثمن جهودهم

مثل: الدولة والديمقراطية والليبرالية والرأسمالية. وأصبح الأفراد يمتلكون حرية فكرية، وحرية سياسية وحرية اقتصادية. وظهر في خضم كل هذا: الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن. الحداثة من الناحية السوسيولوجية هي التي أعلنت ميلاد النمط الاجتماعي الفرداني الذي يعلي من قيمة الفرد ومكانته بعدما كان الفرد في المجتمعات التقليدية تابعا للجماعة وخاضعا لقيمها ومعاييرها.

يميز لويس دومون بين نموذجين من الاجتماع الانساني الأول يولي الأممية للجماعة على حساب الفرد ويسميه ب الكليانية، والآخر يولي الأهمية للفرد على حساب الجماعة ويسميه بالفردانية وتبعا يعتبر أن هناك :« نوعان من المجتمعات. فحيث الفرد هو القيمة العليا أتحدث عن الفردانية؛ وفي الحالة المقابلة، حيث توجد القيمة في المجتمع بوصفها كلا أتحدث عن الفيضية[الكليانية])» (دومون، 2006، صفحة 41)هذا التمييز بين المجتمعات الفردانية و الكليانية هو إذن تمييز ناتج عن التفرقة بين نمطين من الاجتماع، أحدهما يولي الأهمية والقيمة للجماعة على حساب الأفراد وتكمن هذه القيمة في احتكار الجماعة مسؤولية توجهه الأفراد فكريا وعقديا وأخلاقيا وتسمى هذه المجتمعات ب: المجتمعات الكليانية (الفيضية)، والنمط الثاني ظهر مع الحداثة حيث تكون قيمة الفرد مستقلة عن الجماعة، وتسمى هذه المجتمعات التي تحرر فيها الفرد من سلطة الجماعة ووصاياتها ب: المجتمعات الفردانية. (دومون، 2006، صفحة 41)

تعتبر الأيديولوجيا الكليانية أن الجماعة أولى من الفرد وينبغي لهذا الأخير أن يهب ذاته وحياته من أجلها، كما أن وجوده وقيمته لا يقارنان بوجود وقيمة الجماعة. معنى هذا الكلام أن الفرد مجرد سن في دواليب المحرك الاجتماعي بحيث قيمته تكمن في مدى مساهمته في استمرارية حركية هذا المحرك ولا يملك حياة أو غاية خارجة أو مستقلة عن الجماعة. وتعني أيضا أن الكل (المجتمع) يحتوي الأجزاء(الأفراد) ويمتصهم في نظام كلي وشامل وعام، هذه الأجزاء بهذا المفهوم هي خاضعة للترتيب والمراقبة من طرف الكل حتى تضمن التناسق والوحدة، لهذا فإن:« الكليانية تتضمن التراتبية والفردانية تتضمن المساواة (Dumont, 1977, p. 12)» نفهم التراتبية من جهة أن المجتمعات التقليدية لا تعترف بالمساواة بين الأفراد لأنها مجتمعات عبودية طبقية قيمة الفرد ليست من مستمدة من طبيعة الإنسانية أي باعتباره إنسان وإنما بانتمائه الاجتماعي والطبقي والعرقي والديني.

وبالمقابل الاديولوجية الفردانية لصيقة بالمجتمعات الحديثة بحيث تؤمن هذه الاديولوجيا أن:« الفردانية تقوم قبل كل شيء على قناعة هي أن الإنسانية لا تقوم على تكتلات اجتماعية (الأمم، الطبقات...) ولكن تقوم على الأفراد (...) صورة هذا الفرد تحيل إلى حالة الفصل الجذرية التي تجعل من كل كائن بشري كائنا مختلفا وفريدا (هوية فريدة) بحيث يؤسس كل واحد منهم كلية منفردة وتكفي ذاتها نسبيا (Laurent,

«(1993, p. 4 هذا الاكتفاء النسبي يتمثل في قدرة الفرد على تحديد وتوجيه ذاته انطلاقا من ذاته وليس بحاجة إلى وصايات خارجية تحدد له مصيره وقيمه وأفعاله ومعتقداته.

من هنا تتحدد الحداثة باعتبارها اديولوجية ونمط اجتماعي فرداني يؤمن بحرية الأفراد واستقلاليتهم ومساواتهم. ومن الناحية السوسيولوجية نجد أن الحداثة متماهية مع الفردانية فلا يمكن أن نكون حداثيين دون أن نكون فردانيين ولا يمكن أن نكون فردانيين دون أن نكون حداثيين.

يقدم ليبوفتسكي تحليلات بشأن الفردانية الحديثة ويعتبرها على أنها فردانية نظامية، ومحدودة هذا لأن الحداثة التي بشرت بفكرة الفرد المستقل والمتحرر كانت حرية فردية مقننة، تخضع لأطر معينة لا ينبغي للفرد تجاوزها، حرية نظامية وصارمة. هذه الفردانية أطلق عليها ليبوفتسكي في كتابه عصر الفراغ تسمية الثورة الفردانية الأولى في مقابل الفردانية الثانية التي هي استمرارية للفردانية الأولى لكن مع كسر كل القيود التي كانت تضبط وتقنن حرية الإنسان في مجالات السياسة والاقتصاد والفكر، هذا من جهة ونقلها من جهة أخرى إلى مجالات أخرى مثل: الآداب والأخلاق. هذه الحرية والاستقلالية المكتسبة في مجال الأخلاق والآداب تناولها في كتابه "أفول الواجب" وفيه تحدث عن تراجع القيم والمؤسسات التقليدية التي كانت تقيد سلوكات الأفراد.

المؤسسات التي كانت تقف كعائق أما ديناميكية واستقلالية الأفراد تم التخلص منها في مرحلة الحداثة الفائقة: مثل الاديولوجيات الشمولية والوطنية. الثورة الديمقراطية في المرحلة الحديثة مجدت حرية الأفراد وقيم المساواة لكن الحرية والمساواة مقتصرة فقط على الرجال أما المرأة فكان لزاما عليها انتظار الثورة الفردانية الثانية أي مرحلة الحداثة الفائقة، الحداثة دافعت بشدة عن الحرية الفكرية لكنها كانت تقمع الحرية الجسدية وكان لزاما انتظار الحداثة الفائقة حتى يتحرر الجسد من سلطة المجتمع والسياسة، كانت الحرية الجنسية مدانة في مرحلة الحداثة ولكن في مرحلة الحداثة الفائقة تم تحرير الجنس من الرقابة التي كان يخضع لها، إذا جاءت الحداثة بفكرة العقد الاجتماعي الذي يضمن حق الأفراد في الانتخاب والممارسة السياسية إلا أن المرأة لم يتم الاقرار بحقها في الانتخاب إلا في القرن العشرين...عموما كانت الفردانية في المرحلة الحديثة مقننة ومقيدة ونظامية واقصائية.

هذه النظامية والصرامة وهذا الاقصاء هو ما عملت الحداثة الفائقة على طرحه والتخلص منه. وذلك من خلال الدفع بمسار التحرر إلى أبعد الحدود حيث تخلصت المرحلة المعاصرة من كل هذه القيود التي كانت تثبط حرية الأفراد وتعيق اكتمالهم الذاتي. هذا المسار التحرري من الحداثة إلى الحداثة الفائقة يسميه ليبوفتسكي بـ: مسار الفردنة (الشخصنة)Procès de personnalisation والذي يقابله"المسار

النظامي Procès disciplinaire ، مسار الفردنة هو المسؤول عن الانتقال من الفردانية الحديثة إلى الفردانية الفائقة.

إن مفهوم "مسار الفردنة" وظفه ليبوفتسكي من أجل فهم وتفسير الانتقال الذي حدث من الفردانية الأولى أي الفردانية الحديثة إلى الفردانية الثانية أي الفردانية الفائقة. ويقصد ليبوفتسكي ب"مسار الفردنة" مسار إضفاء الطابع الشخصي للحياة الفردية. حيث جعل هذا المسار كل شيء متعلقا بالحياة الشخصية للأفراد؛ من قبيل أن هذا المسار وضع حدا لتدخل الوصايات الأخرى في الحياة الشخصية للأفراد مثل: العائلة، المجتمع، الدولة، الدين. ولما كان الأمر كذلك فإنه يمكن القول أن "مسار الفردنة" بالتقريب هو: مسار استقلالية وتحرر الحياة الشخصية للأفراد من تدخل الوصايات والمؤسسات التقليدية التي كانت في مرحلة ما تؤطر و تضيق على خياراتهم وقراراتهم المتعلقة بحياتهم الشخصية. من هذه الزاوية يمكن فهم هذا المسار كمسار تحقق الذات (استقلاليتها) واكتمالها (ليست بحاجة إلى وصايات) من خلال مراعاة رغبة الأفراد وخياراتهم، وأكثر من ذلك احترام هذه الرغبات والخيارات نفسها.

هذا المسار حسب ليبوفتسكي هو بمثابة الفكرة المركزية التي تقوم عليها كل تحليلاته، وعلى ضوئه يفهم تشكلات وتحولات المجتمعات التي تعرف ديمقراطيات متقدمة. ليبوفتسكي في حقيقة الأمر يدرك محدودية وتهافت هذه المحاولة في رصد هذه المجتمعات التي تشهد تشكلات وتنظيمات ومؤسسات ومعايير متعددة ومختلفة واختزالها في مبدأ بسيط أو بلغة فيبر في "نموذج مثالي" واحد يتجسد في: "مسار الفردنة" لأن هذا الواقع معقد بشكل يصعب القبض عليه في مبدأ واحد، إلا أن ليبوفتسكي يعول عليه لأنه مبدأ يشتغل وفق "مُقاربة مُقارِنة وتاريخية" هذه المقاربة المزدوجة لمسار الفردنة يتجسد أولا: في عملية المقارنة مع مجتمعات الحداثة التي كانت بالأساس تخضع ل:« نظام انضباطي ثوري كلاسيكي[تقليدي]، الذي استمر إلى غاية الخمسينات »(Lipovetsky, 1983, p. 10) وثانيا: عملية تاريخية تتمثل في:« القطيعة مع مرحلة دشنت عصر المجتمعات الحديثة التي كانت تتسم بديمقراطية نظامية، وعالمية صارمة، واديولوجية اكراهية»(Lipovetsky, 1983, p. 10)

هذه المقارنة وهذا الحفر التاريخي كانا ضرورين لفهم التحولات التي عرفتها المجتمعات المعاصرة حيث كان لزاما عليه أن يعود إلى المجتمعات الحديثة التي سبقتها ليعقد مقارنة بينها وبين مجتمعات مابعد الحداثة(الحداثة الفائقة)، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، وضعها في سياقاتها التاريخية التي تشكلت فيها وساهمت بدورها في تحقيق هذا الانتقال. حيث يقول ليبوفتسكي بشأن هذا المسار ما يلي:« يحيل مسار الفردنة في صورته السلبية إلى التصدعات التي لحقت بالنمط الاجتماعي الانضباطي، أما في صورته الايجابية يكشف

عن انبلاج فجر مجتمع مرن يقوم على المعلومة وإثارة الحاجات، والجنس مع مراعاة "الأبعاد الإنسانية"، وكذا مكانة الطبيعي والود والفكاهة. كما يعبر عن انبثاق نمط جديد من الانتظام والتوجه، وتسيير السلوكات، لكن ليس كما كان في السابق عن طريق الطغيان الذي تسببه الإملاءات الحرفية، وإنما عبر أقل قدر من الصرامة وأكبر قدر من الخيارات الخاصة الممكنة، مع أقل قدر من الاكراهات وأكبر قدر من التفاهم الممكن»(Lipovetsky, 1983, p. 11)

"مسار الفردنة" لم يكن وليد مجتمعات الحداثة الفائقة بل كان محايثا للمجتمعات الحديثة التي كانت تحمل في أحشائها هذا المسار، لأن الفردانية الحديثة كانت في منطق اشتغالها تنادي بالحرية والاستقلالية الفردية في كل المجالات ولكن الذي منع من ظهورها بهذا الشكل الذي هو عليه في المجتمعات المعاصرة هو طبيعة النمط الاجتماعي في تلك المرحلة القائم على النظام والانضباط والصرامة.

إن تراجع النمط الاجتماعي القائم على النظام والصرامة والانضباط سمح لمسار الشخصنة بالظهور بشكل بارز في مرحلة الحداثة الفائقة. و قد عبر عن ذلك ليبوفتسكي بقوله:« مسار الفردنة ظهر في رحم الفضاء النظامي بحيث تميز العصر الحديث بتزاوج منطقين متناقضين. والذي جعلنا اليوم نتكلم عن مجتمع مابعد الحداثة هو الإلحاق المستمر لمجالات الحياة الاجتماعية لمسار الفردنة وبالمقابل التراجع القهقري للمسار النظامي » (Lipovetsky, 1983, p. 14)

من خلال توظيف مقولة الفردانية حاول ليبوفتسكي فهم الحداثة على أنها ثورة فردانية أولى إلا أنها فردانية نظامية ومقيدة تخلص الفردانية الحديثة، بفعل تأثير "مسار الفردنة" من هذا البعد النظامي هو الذي أدى إلى الانتقال إلى الفردانية الثانية أو الفردانية الفائقة. ولما كان هناك استمرارية في مسار الفردنة فإنه هناك استمرارية في مسار الحداثة. وانطلاقا من هذا التأويل الفرداني للحداثة توصل ليبوفتسكي في تحليلاته إلا أننا لسنا مابعد حداثيين بل حداثيين فائقين.

عموما يمكن القول أن ليبوفتسكي يسعى إلى القبض على كل صور وتمظهرات فرد الحداثة الفائقة ومساره التحرري في كل المستويات والمجالات: في القيم (تحكمه أخلاق غير مشروطة أو أخلاق اللاواجب)، السياسة (لا يبالي بها لكنه متمسك بحقوقه في ممارسة السياسة)، المجتمع (تخلص من سلطة العادات والتقاليد)، العائلة (تحرر من سلطتها)، الاقتصاد (فرد مفرط في الاستهلاك)، الثقافة (ثقافة مرحة)، المدرسة (تربية متسامحة ومتساهلة)، الدين(قضية شخصية)، علاقته بالوقت (يعيش اللحظة)، جسد خفيف، مأكولات خفيفة، لباس خفيف، الاقتصاد والتكنولوجيا تطمح إلى منتجات أكثر خفة كل مظاهر الحياة

المعاصرة تبين أن الفرد قد تخلص من ثقل الوصايات والاملاءات التقليدية: تحرر المرأة، الحرية الجنسية، العيش وفق نمط قيم المتعة والرغبة، حرية التنقل والسفر وغيرها من مظاهر الحرية.

انهيار الاديولوجيات الكبرى وتراجع مكانتها حل محلها الإيمان ب"الذات". هذا الإيمان بالذات احتل مكان الإيمان التقليدي المرتبط بالاديولوجيات، الأمة، الدين، الله، الطبقة. الذات في مرحلة "الحداثة الفائقة" تفضل أن تعيش حياتها بكل كثافتها: الاستمتاع، السعادة، السفر، الشهرة، الاستهلاك، الجنس، الخفة، الاستقلالية، النفور من التضحية، عدم الالتزام بالواجبات، ادانة التربية الصارمة وبالمقابل الميل للمرونة والليونة، النفور من الإكراه والقيود. كل هذه التحولات تبرر الحديث عن الفردانية الفائقة ومنه الحداثة الفائقة.

إذا كانت الحداثة الفائقة هي مرحلة انهيار "السرديات الكبرى" فإنه في نظرنا أن "النزعة الفردانية" حلت محل كل هذه السرديات وأصبحت هي السردية الجديدة بفهم وتفسير كل ما يحدث في العالم. لهذا يعول عليها ليبوفتسكي في تفسير هذا الانتقال من الحداثة إلى الحداثة الفائقة، وكذا فهم كل التحولات التي يشهدها هذا العصر.

4. هل يمكن الحديث عن مابعد "الحداثة الفائقة"؟

إذا كانت الحداثة الفائقة تمثل المرحلة القصوى للحداثة فهل يمكن الحديث عن قرب نهاية الحداثة من قبيل أن هذه الأخيرة بلغت مداها الأقصى والفائق؟ ألا يمكن اعتبار بلوغ المرحلة القصوى أو الفائقة يضعنا أمام مشهد النهاية، ونصبح هنا أمام مرحلة مابعد الحداثة الفائقة؟ عنون هبرماس أحد مقالاته المشهورة ب:" الحداثة، مشروع لم يكتمل". هذا المقال جاء كرد فعل على نقاد الحداثة وبالخصوص الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت الذين يعتبرون أن الحداثة تحولت إلى بربرية وهمجية لم تعد تسير في طريق الكمال والتقدم كما أنها تخلت عن أهم الآمال والوعود التي قطعتها على الإنسانية. هذا النقد هو الذي دفع هبرماس إلى كتابة هذا المقال ليدافع عن مشروع الحداثة حيث يقول: « إن قصدي أن الواجب أن نتعلم من حالات التيه التي صاحبة مشروع الحداثة، ومن أخطاء مشاريع التجاوز المغرورة، بدلا من أن نتخلى عن الحداثة ومشروعها (هبرماس، 2012، صفحة 191)»هذا الكلام في حقيقة الأمر لا نجده بعيدا عن أطروحات دعاة التواصل بين الحداثة ومابعد الحداثة أو حتى مناقضا لها، وأن قول الحداثة مشروع لم يكتمل يشترك في القضية القائلة أننا لسنا مابعد حداثيين ولكننا حداثيين فائقين.

إن الاشتراك بين هبرماس وليبوفتسكي يتمثل في اعتبار أن الحداثة لم تنتهي بل مازالت قائمة، كما أنهما يتقاسمان نفس الخصم الفكري الذي يروج لفكرة القطيعة. لكنهما يختلفان في كيفية تصور استمرارية هذه الحداثة فإذا كان هبرماس يتناولها من جهة أن مشروع الحداثة لم يعلن إفلاسه وإخفاقه تجاه الوعود التي قطعها

على الإنسانية بل مازال يملك الكثير ليقدمه للإنسان، وهو وان وقع في عثرات فإنه يمكن دائما إعادة النظر فيه وفي طريقة اشتغاله، فإن ليبوفتسكي لا تراوده أصلا فكرة إفلاس مشروع الحداثة وما يسمى بما بعد الحداثة هي في حقيقة الأمر حداثة فائقة لأن هذه المرحلة تعبر عن تطور الحداثة وليس على نهايتها باعتبار أن مبادئ الحداثة التي قامت عليها مازالت موجودة ومازال يتم استهلاكها ونشرها وتعميقها. هبرماس يدافع عن الحداثة من وجهة نظر فلسفية (نظرية) وبالتحديد الدفاع عن العقل الذي تمت إدانته بشدة، أما ليبوفتسكي فينطلق من الواقع نفسه ثم يبني موقفه ويطلق أحكامه. هبرماس يبني موقفه من مجادلته للنصوص التي تدين الحداثة أما ليبوفتسكي فموقفه يبنيه من تحليلاته للواقع.

قول هبرماس في أن "الحداثة، مشروع لم يكتمل" كأنه يريد أن يُمنح للحداثة فرصة ثانية حتى نحكم عليها. إن قول أن "الحداثة، مشروع لم يكتمل" يحيلنا إلى معضلة يصعب فكها لأن الحداثة من حيث غايتها لن تعرف الاكتمال لأن كمالها لن يتحقق الآن واللحظة، وكأنه يريد أن لا نصدر أحكاما على الحداثة حتى تنهي مشروعا في حين أن هذا المشروع لن يكتمل أبدا، لأن هذا المشروع غايته أصلا الكمال نفسه. وحسب فلسفة التاريخ كما صاغها كانط فإن هذا الاكتمال لن يتحقق في الأفراد بل في النوع، أي أن مشروع الحداثة لن يتحقق في مرحلة تاريخية معينة بل في نهاية تاريخ الإنسانية ككل. وقدر الإنسان بهذا التصور محكوم عليه بمطاردة الكمال ومحكوم عليه بإتمام هذا المشروع الذي لن يكتمل أبدا. هذا المشهد التراجيدي يذكرنا بشخصية سيزيف التي حكم عليها بزحزحت الصخرة التي لن تبلغ مكانها.

إن الحداثة الفائقة مازالت فتية حسب ليبوفتسكي ومازالت في طور التكوين والتشكل وهي بصدد الانتشار والتوسع ويستدل على ذلك بما نشهده من ولوج العديد من الدول عالم الحداثة الفائقة مثل: الصين، الهند والبرازيل ومع مرور الزمن العدد سيتزايد. كما أشار إلى أنه في مرحلة الحداثة الفائقة عرفت المرأة تحررا كبيرا ورهيبا وهذا الأمر ليس هينا لأنه يتعلق بالنصف الآخر من الإنسانية لهذا لا يمكن الاستهانة بهذا التحول وتأثيره في تشكل وتحول العلاقات الاجتماعية. إن ليبوفتسكي يعتقد أنه من المبكر الحديث عن نهاية الحداثة الفائقة مادامت أسسها التي تقوم عليها مازالت قائمة وأكثر من ذلك مازالت تشهد انتشارا شاملا: الاقتصاد الرأسمالي أصبح عالمي، العلم في تطور دائم ومستمر، لكن الرهان في نظره يبقى دائما على المستوى الاجتماعي، إذن كيف يمكن الحفاظ على مكسب الديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان في ظل تراجع دور الدول ومكانتها وطغيان الاقتصادي على السياسي؟

5. خاتمة:

ما يمكن استخلاصه في هذا المقال هو أن أطروحة مابعد الحداثة تحيل إلى فكرة القطيعة مع الحداثة، وأن الأزمنة المعاصرة لم تعد تشتغل وفق الطريقة التي يجعلها تحقق مشروع الحداثة. وهذا ما تعبر عنه الدلالة التي تحيلنا إليها كلمة "مابعد". ما بعد الحداثة ليس فقط مرحلة انحراف مشروع الحداثة وإنما أيضا مرحلة النقد العنيف لمقوماتها. وبالمقابل نجد أن فرضية الحداثة الفائقة تحيل إلى فكرة الاستمرارية مع الحداثة وأن المجتمعات المعاصرة مازالت تشتغل وفق ديناميكية الحداثة وأنها تدفع بمشروعها التحرري إلى أبعد الحدود، لهذا تعتقد هذه الأطروحة التي تستند إلى فرضية الحداثة الفائقة أننا لسنا حداثيين وحسب وبل حداثيين فائقين. أطروحة مابعد الحداثة تحمل نظرة متشائمة لوضع المجتمعات المعاصرة في حين أطروحة الحداثة الفائقة على العكس تقدم لنا نظرة متفائلة.

إذا كانت المجتمعات الغربية المعاصرة تعيش حداثة فائقة فإن جزءا كبيرا من مجتمعات العالم تعيش مرحلة ما قبل الحداثة ومازالت تقليدية لم تدخل بعد طور الحداثة الفكرية. إن المفارقة التي تشهدها هذه المجتمعات التقليدية أنها تنتمي إلى عالم بلغ مراحل متقدمة من الحداثة لكنها تعيش بعقلية تقليدية موروثة متناقضة مع بعض قيم الحداثة. المجتمعات الحديثة هي مجتمعات مُحرِرة وتقدس الحرية، أما المجتمعات التقليدية فهي مجتمعات مُقَيِدة ومنغلقة مازالت الأعراف والعادات والآداب والقيم الدينية هي التي تحدد مسارها. ولكنها بالمقابل مجتمعات تعيش الحداثة من خلال استهلاك منتجاتها المادية. هذا الواقع المتناقض يعبر عن مرحلة الصدام بين التقليد والحداثة، بين الثقافة الموروثة المقِيدة والثقافة الجديدة المحرِرة، بين القيم التقليدية والقيم الجديدة، ومع مرور الزمن تتقلص دائرة التقليد وتتوسع دائرة الحداثة. إذا كانت مابعد الحداثة تشير إلى تعثر مشروع الحداثة أو ربما اخفاقه وانهزامه فإن هذه الصورة "الآبوكاليبسية" منحت نوعا من العزاء للمجتمعات التقليدية التي لم تدخل طور الحداثة حيث جعلتها تشعر بنوع من الرضى بواقعها ما دامت الحداثة نفسها تحولت إلى "بربرية وهمجية". إلا أن أطروحات الحداثة الفائقة تضعها أمام أمر الواقع. إن الواقع اليوم في المجتمع الإنساني يكشف أن الحداثة أسوء قسمة بين الناس، ولن يكتمل مشروع الحداثة ما لم تصبح عالمية ولن تصبح عالمية ما لم تتجسد في كل المجالات وكل المجتمعات.

6. قائمة المراجع:

1.6 قائمة المراجع العربية:

- لويس دومون. (2006). *مقالات في الفردانية: منظور أنثروبولوجي للأيديولوجية الحديثة.* (بدرالدين عردوكي، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- يورغن هبرماس. (2012). الحداثة- مشروع لم يكتمل. *تبين*(1)، الصفحات 183-196.

2.6 قائمة المراجع الأجنبية:

- Carles, S. (2007). *l'hypermoderne expliqué aux enfants.* Montréal: Liber.
- Charles, G. L. (2004). *Les temps hypermodernes* . Paris: Grasset.
- Charles, S. (automne 2005-Hiver 2006). de la postmodernité à l'hypermodernité. *argument, 1*(n°8), pp. 1-13.
- Claude, T. (2012). Modernité, postmodernité, hypermodernité. *Connexions*(97), pp. 15-25.
- Dumont, L. (1977). *L'homo aequalis, genèse et épanouissement de l'idéologie économique.* Paris: Gallimard.
- Laurent, A. (1993). *histoire de l'individualisme.* Paris: PUF.
- Lipovetsky, G. (1983). *l'ère du vide, essais sur l'individualisme contemporain.* Paris: Gallimard.
- Nicole, A. (2006 /7). l'individu hypermoderne et ses pathologies. *L'information psychiatrique*(82), pp. 605- 610.
- Renaut, A. (1995). *, l'individu : réflexions sur la philosophie du sujet.* Paris: Hatier.